



د. عماد الدين خليل - العراق

مذكرات مدارس مضطهد

وفي كل الأحوال، ما كان الرجل ليدفعني إلى متابعته أكثر، وسط زحمة أعماله وضيق وقتي، إذ كان كثيرون مثله يمارسون «الذهول» الهادئ نفسه، وهي حالة نعرفها جيدا في عيادات المجانين. لكن ما جعلني أهتم بمتابعته أنني كنت ألمحه يخرج بين الحين والحين دفترًا صغيرًا من جيب «بيجامته»، يقلب أوراقه بهدوء، ثم ما يلبث أن ينكب على إحدى صفحاته، وكأنه يبذل جهدًا استثنائيًا في قراءتها.

لم أشأ أن أزعج الرجل، أو أقترح عليه همومه الخاصة، وهو أمر كثيرًا ما كنا نحن الأطباء المتمرسين نحذر منه طلابنا الجدد. وفضلت - بدلا من ذلك - أن أسأل عنه إدارة المستشفى، حيث تبين أنه مدرس رياضيات قديم في إحدى متوسطات الموصل، أحيل على التقاعد في ربيع عام ١٩٥٤م، بسبب حالة الانقصاص الحادة التي أخذ يعاني منها، ثم ما لبث أن نقل إلى مستشفى الشماعية في بغداد، ربما بطلب من عائلته، حيث فقد كلية القدرة على التواصل مع الآخرين، والتوافق مع الحياة.

كنت أعمل جراحًا للجذبة العصبية في المستشفى الملكي في بغداد في الخمسينيات.. وبين الحين والحين أقوم بزيارات دورية لمستشفى (الشماعية) للأمراض العقلية، وكنت أعتبر ذلك ضرورة من الضرورات العلمية، فضلا عن جانبها الوظيفي، لأنها كانت تطلعني على حالات استثنائية تضعني في قلب التحدي، وتدفعني إلى المزيد من البحث والتنقيب في طريقة عمل الدماغ البشري، وعوامل اضطرابه وتمككه ودماره.

لفت أحدهم نظري بهدوئه، ونظرته المترعة بالعمق والحكمة.. كنت أجده حينًا وهو يحدق في نقطة ما في الفضاء كمن يحاول أن يكتشف شيئًا هناك، وحينًا آخر أراه مكبا على الأرض، وقد سرح ذهنه بعيدا، ربما في محاولة لاستبطان ذاتي بحثا عن جواب ما.. وكل ما كان يصدر عنه من حركة إنما يتمثل بإبهامه وسبابته، وهما تتحركان بين لحظة وأخرى لإعادة إطار النظارات إلى وضعه الصحيح عند أرنبة الأنف.

بعد أسابيع قلائل سمعت أنه توفي.. انتابني شيء من الحزن بسبب حالته الخاصة وموقعه الوظيفي، ولكني سرعان ما نسيتته وأنا أتذكر دفتره الصغير الذي طالما كان يحدق في صفحاته ويقلبها على غير انتظام.. وهرعت إلى إدارة المستشفى بحثاً عنه، وقد تملكني القلق من أن يكون الدفتر قد أعيد إلى عائلته مع مخلفاته الأخرى.. لكنني لحسن الحظ وجدته في انتظارٍ على مكتب المدير..

لوح لي به وهو يبتسم وقال:..

- كنت أعرف أنك ستبحث عنه فاحتفظت به.

- لا تدري كم أنا أشكرك.

أجاب وهو يسلمني إياه:

- هدية متواضعة جداً لأستاذنا الدكتور عبد الحكيم صباغ.

- أشكرك مرة أخرى...

توجهت إلى عيادتي في شارع السعدون.. كان ثمة ما يزيد على نصف الساعة على موعد أول مريض، ففتحت الدفتر بلهفة لمتابعة ما الذي كان صاحبه قد دونه فيه.

■ دفتر مذكرات يومية..

قلت في نفسي وأنا أقلب صفحاته بسرعة وتقع عيناى على تواريخ متقاربة حيناً، متباعدة أحياناً من مرحلة الخمسينيات.. ورحت أقرأ بشغف لعلني أطلع في ثنايا الكلمات على شيء يكشف حقيقة ما، أو يضع يدي على جذور الحالة التي انتهت به إلى الدمار.

■ الاثنين ٣-١٠-١٩٥٣م:

أشعر بارتياح عميق.. لقد انتظم الدوام بعد أسبوعين من القلق والتسبب.. لا أرتاح لتغيب الطلبة الجماعي.. عندما أدخل الصف فأجد عددهم مكتملاً أقول في نفسي: أبشر يا نجيب، فلسوف تقدم اليوم خبرتك كاملة..

الفوضى تربكني هي الأخرى لأنني أشعر بأن الأشياء أصبحت في غير موضعها فأبتعث معها أنا الآخر.. أمنيتي أن يكون كل شيء في محله تماماً، ولكن ليس في اليد حيلة.. ومشكلتي أنني أحب طلبتي أكثر مما يجب، ولهذا أتركهم أحياناً يعبرون بعفوية عن أنفسهم، وقد يخرجون عن المطلوب بدرجة أو أخرى.. وبعضهم يتجاوز حدود اللياقة مستغلاً سماحتي.. ولقد نبهني مدير المدرسة إلى أن أكون أكثر حزمًا في هذه النقطة بالذات، وثنى عليه معاون الذي طالما كبسني داخل الصف وأنا أمنح الطلبة بين الحين والحين فرصة للارتياح.. لا شيء إلا لأنني أريدهم أن يستأنفوا متابعتي في حل المسائل الرياضية وهم أكثر قدرة على التركيز.. ثم إنني أحبهم وهذه ليست مشكلتي!.

■ الخميس ٦-١٠-١٩٥٣م:

تدفق الطلبة على الصف يغمزهم الحبور، كما هو الحال كل يوم خميس، فها هو ذا موعدهم الأسبوعي للخروج مساءً إلى السينما.. إنه اليوم الذي ينتظرونه على مدى الأسبوع كله.. وهاهي ذي الغبطة تكاد تطير بكل واحد منهم في الهواء.

وتذكرت أيام صباى وأنا أكاد أطير معهم محمولا على نشوة الذكرى.. يا لتلك الأيام السعيدة!.. أخرج أحدهم من جيب سترته ضفدعا وألقاه في الممر الفاصل بين خطي المناضد الدراسية.. حاولت أن أتفاضى عنه، ولكنني وجدت الطلبة كلهم يحدقون فيه ويضحكون.. فتقدمت إلى الطالب وربت على كتفه بحنان وأنا أقول:..

- لماذا أيها الطالب الشقي؟

أجاب وهو يحس بغبطة طاغية بعد إذ قدر على جلب انتباه زملائه جميعاً:..
- إنه يوم الخميس يا أستاذ!



مضى الطالب بتأقل إلى الباب وقذف الضفدع بعيدا، وعاد وهو يرفع قبالة زملائه إشارة النصر.

■ السبت ٨/١٠/١٩٥٣م:

دخلت الصف فوجدت الطلبة يفمرهم الوجوم وتكسو وجوههم الكآبة بخلاف ما كانوا عليه قبل يومين..

خمنت السبب.. إنه يوم السبت.. بداية الأسبوع الثقيل، حيث يقبل الطلبة على بدء رحلتهم الأسبوعية مع هموم الدراسة، ولا تزال ذكريات الخميس العذبة، ولعب الساعات الطوال صبيحة الجمعة، تداعب مخيلتهم.. وقلت في نفسي: لا بأس، إنه بالنسبة لي على الأقل يوم راحة، فها هو ذا وجومهم يجعلهم أكثر ثقلا، وهامهم أولاء في هذا اليوم بالذات يكفون عما أسميه دائما الفعاليات الترفيهية.. ومع ذلك، كان هذا يقلقني بعض الشيء.. يجعلني أحس بخوف مبهم.. لعله الهدوء الذي يسبق العاصفة.. أقول في نفسي.. وقد يتمخض عن شيء ما على حين غفلة..

هاجس موغل لا أكاد أتبينه، وأحاول طرده بإقتناع نفسي أنه ربما يكون وسوسة لا مبرر لها.. لكنه يصر على التمرکز في مكان ما من جملة العصبية.. ينسرب هناك كعرق أصابه السوس..

إنهم قد يفعلون شيئا ما خارج نطاق كل حساب.. شيئا يتجاوز حالته الترفيهية العفوية إلى عمل عدواني مدمر.. وها هو ذا المعاون العنيد الذي يتحين الفرص للإيقاع بي، يروح ويجيء ملقيا نظرتة الباردة كالجليد عبر فتحة الباب، أو من خلال النافذة.. ولكن لا بأس فلسوف ألاحق الهاجس.. والقلق.. والخوف من المجهول، بمحبتتي لطبتي.. إنهم المظلة

- وهل يختلف يوم الخميس عن بقية الأيام؟
- بكل تأكيد.

- ولكننا في المدرسة بعد يا بني ولسنا في السينما.
قال وهو يحرك كتفه بلا مبالاة:
- مع ذلك!

ربت على كتفه مرة أخرى وأنا أقول له برفق:
- قم يا بني فألق القبض على الضفدع المسكين قبل أن يسحقه زملاؤك بأحذيتهم، وارمه في الفناء..
قفز الطالب، واجتاز الممر وهو يكاد يرقص،



وأمسك الضفدع، وزملاؤه يتصايحون، ووضعه في جيبه!

كان الباب مواربا بعض الشيء، ولحت المعاون المعروف بشدته وسفاهته يمر قريبا من الفتحة ويلقي نظرة غاضبة مترعة بالازدراء، ثم يمضي إلى هدفه..

أحسست بشيء من الانقباض، وقلت للطالب وقد كدت أن أفقد صفائي النفسي وفرحي:
- ليس هذا مكانه يا بني.. ارمه في الفناء.

التي قد تصد رياح السموم القادمة من جهة المعاون.. وربما من ذلك المكان الخفي في أعصابي.. المكان البعيد الذي لا أستطيع الإمساك به..

■ الثلاثاء ١١-١٠-١٩٥٣:

تلقي الطلبة شرحي لمبادئ المثلثات بإنصات مريح عبر الدقائق الأولى، ولكن بعدها بقليل أحسست كما لو أنهم بدؤوا يتململون، وكان علي أن أعطيهم كماداتي فرصتهم الترفيهية المعهودة.. فاصلا زمنيا يريحون فيه أعصابهم ويستعدون لجولة أخرى من الشرح قبل أن أملئ عليهم السؤال التحريري لكي يجيبوا عليه..

إنه خطئي على أية حال.. لقد أطلت الشرح بأكثر مما يجب.. لعلني كنت منغمرا في نشوة فك طلاسم الموضوع.. إنها والحق يقال، متعة من نوع غريب تجعلني أهتز - أحيانا - بحركة غير اعتيادية.. لكأنني أرقص بهدوء.. بصورة غير منظورة تماما.. لكن المتمعن فيها يتبين له أن مدرس الرياضيات يتأرجح بين الحين والحين ذات اليمين وذات الشمال.. وكان الطلبة يتبسمون وهم يروني أفل ذلك.. فأحاول أن أكف عن التأرجح فلا أستطيع.. ويوما بعد يوم أصبحت الحالة أمرا قهريا وأرغمتمني على الخضوع.. وأقول في نفسي: الطلبة.. لا بأس.. ولكن ماذا لو رأي المدير أو معاونه القاسي؟

وانكبت على اللوحة السوداء أمسحها بشغف، مديرا ظهري للطلبة.. وعندما التفت قليلا لإشعار الأولاد بحضوري، رأيت أحدهم ينهض بتثاقل ثم يتقدم إلى اللوحة ويقف بموازاتي..

- لا يمكن يا أستاذ!

ومد يده إلي فانتزع المحاة مني وأردف..

- لقد امتلأت بدلتك النقية بغيار الطباشير.

أجبتة بمودة:

- لا بأس يا بني فقد اعتدت على هذا.

دفعني جانبا وهو يردد:

- لا يا أستاذ.. لا.

وانكب على اللوحة حتى أتم مسحها، وعندما هم بمغادرة المكان عائدا إلى مقعده، أحسست كما لو أن يده تمتد خلف ظهري فتعلق على السترة شيئا ما.. ربما أكون واهما.. قلت في نفسي.. لكنني عندما رحت أذرع الممر داخل الصف، ذهابا وإيابا، بانتظار إجابة الطلبة عن السؤال اليومي التحريري، لاحظت أنهم يتضحكون ويتغامزون، ويشير بعضهم إلى ظهري.. وقلت في نفسي وأنا ألقى رشقة من الخوف: أرجو ألا يكون شيئا ذا بال..

وتذكرت المعاون الذي يتحرك كالمكوك الطائر بخفته ورشافته المعهودة في فناء المدرسة متبرعا، بالنيابة عن المدير الذي لا يفارق مقعده، في مراقبة الطلبة والمدرسين معا..

وازداد تضاحك الطلبة وتقافزهم.. ووجدتني أصرخ على غير إرادة مني:

- ماذا يا أولاد؟

بغفوية بالغة أشاروا جميعا إلى ظهري دون أن ينبسوا ببنت شفة فقد كان الضحك المكتوم يخنقهم.. واستطاع أحدهم أن يفك عقدة لسانه ويقول..

- إنه يشبه الذيل يا أستاذ!

■ الأحد ٦-١١-١٩٥٣م:

عندما التفت إلى اللوحة للبدء بكتابة المعادلة ذات الحدين وجدت صورتي مرسومة بالطباشير على جانب منها.. أدهشتني دقة الخطوط، والمهارة الملحوظة في رسم الملامح...

- إنه أنا بكل تأكيد!

قلت في نفسي..

- ولكن من هو الطالب الفنان الذي نفذها؟



فاصل الألم بيني وبين العالم، وربما قوة الخيال التي دربني عليها التعامل المدهش مع الهندسة والمثلثات، جعلتني أجد في الرسم الفرصة الملائمة للتعبير.. وطالما أقتعت نفسي بأنني لولا الرسم لتطايرت بددا وأصبحت شتاتا.. لقد غدت أعصابي بمرور الوقت مكشوفة بأكثر مما يجب.. مكشوفة لأبسط المؤثرات وأكثرها خفاء ونأيا.. أن تضرب بقرشائك على اللوحة ملطخا إياها بالزيت الأحمر يعني أنك تجاوزت لحظات النزف الباطني الذي قد يدمرك.. حررت نفسك من أزيهه المخيف..

انتبهت فجأة إلى أحد الطلبة ينهض قائما، ويتقدم إلى اللوحة بخطوات واثقة.. يقف قريبا مني ويقول وهو يشير إلى اللوحة:
- أنا يا أستاذ!

ربت على كتفه بعنان:
- حسنا يا ولدي.. أمل أن تنمي قدرتك المدهشة على الرسم، ولكن.. أأست معي في أن هذه اللوحة ليست مكانها الطبيعي؟
وقال الطالب، وهو يهيم بمغادرة المكان وسط نوبة مفاجئة من الإحساس بالخجل:
- أعدك يا أستاذ!

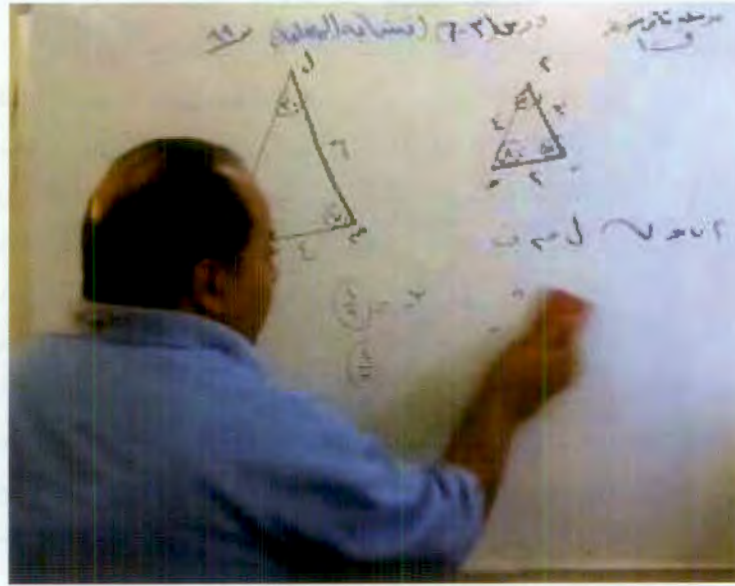
■ الأربعاء ٧-١٢-١٩٥٣م:

المراة تملأ فمي وأنا أدون هذه الكلمات.. لقد استطاع المعاون صبيحة اليوم أن يسجل علي انتصارا ساحقا.. أن يضعني في الزاوية الضيقة قبالة المدير، ويسدد إلي رشقات متلاحقة من سهامه المسمومة جعلتني أترنح قليلا وأتهدأ لاستقبال لعنة الإغماء لولا المقاومة الاستثنائية التي بذلتها لتفادي السقوط.

طلبتني الذين أحببتهم كانوا السبب.. لكن المعاون أصر - كما هو شأنه دائما - على أنني المسؤول أولا

استدرت بسرعة لكي أواجه الطلبة.. وجدتهم ينفصون بالضحك وهم ينقلون نظراتهم بين الصورة والأصل..

وقلت لهم بمودة، في محاولة لاحتواء الموقف:
- إنها محاولة جيدة على أية حال.. وهي تدل ولا ريب على القدرة الفنية العالية للطلاب الذي رسمها.. ولكن من هو هذا الطالب النابه يا أولاد؟ أرجو أن يرفع إصبعه بهدوء لكي أهنئه..
لم يرد علي أحد.. وضاع رجائي في الفضاء..



وللحظات انتابني حنين جارف لممارسة ما اعتبرته دائما هوايتي المفضلة: الرسم! لقد نفذت أيام دراستي الجامعية العديد من اللوحات.. كلها أثار الإعجاب.. كنت أملك قدرة فائقة على توظيف اللون، وأعرف كيف أجعله يحكي بلغته الخاصة عما تعجز عنه الكلمات..

النار التي كانت تشتعل في وجداني، والحساسية المفرطة في التعامل مع الخبرات، والأشياء.. وانعدام

صحت بصوت مبجوح وأنا أحاول أن أتمالك أعصابي:

- ما الذي جعلكم تفعلون هذا يا أولاد؟

أجاب أكثر من واحد:

- وما ذنبنا نحن؟ لقد حاولنا أن نزيد قدرتها على التدفئة فانزعجت منا.. البرد يا أستاذ يفوق التحمل..

وصاح أحدهم وهو يوجه إليها رفسة قاسية بحدائثه المملخ بالوحل:

- لك الويل أيتها العاهرة.

وقلت وأنا أكافح السعال مرة أخرى:

- ليس هكذا يا أولاد.. لقد اختنقت كما ترون..

هل تعرفون ما الذي يعنيه هذا؟

صاحوا جميعا بجذل، وهم يتحركون قبالي كالأشباح التي لا تكاد ترى:

- ما الذي يعنيه يا أستاذ؟

صرخت:

- خسارة الدرس كله!

وأردفت بيني وبين نفسي: وربما هزيمتي التي طالما تحاشيتها قبالة معاون المدير.

على حين غفلة انفجرت أكف الطلبة بتصفيق

كالرعد.. وبين لحظة وأخرى كانت تتطلق صرخة حادة من هذا الطالب أو ذاك:

- اللعنة على الرياضيات.

- هذا يوم الثأر.

- لتخسأ الأرقام والمعادلات.

- الحرية ولا شيء غير الحرية..

أحسست أنني أفقد السيطرة تماما، وحاولت

بصعوبة أن ألتقط أنفاسي لكي أوصل المقاومة، ولكن عبثا.. ثمة قوة قاهرة كانت تجرني قليلا فتقذف بي خارج الصف.

وأخيرا.. وإلا فما معنى أن يدخل حصتي الثانية للاطلاع على الموقف (كما يجب أن يسميه) فلا يجدني في الصف، ويجد (بدلا من ذلك) المدفأة الحديدية وهي تنفث دخانها المختنق بكثافة، وتقذف به في الفضاء فلا يكاد أحد يتبين موطئ قدميه.. بينما سعال الطلبة وصراخهم يتداخلان مع بعضهما ليشكلا لنا تضطرب فيه الأصوات وتزداد حدة بما يكاد يمزق طبلة الأذن ويمزق الأعصاب؟!

أستطيع اللحظة، وقد استعدت شيئا من هدوئي، أن أتذكر ما الذي حدث على وجه التحديد..

دخلت الصف وأنا أرتجف من البرد، ورشقات المطر الغزير تبلل شعري وثيابي.. ولم تتج منها نظارتي التي كنت أحرص على أن تكون في مكانها تماما، مثبتة بإحكام فوق أرنبة أنفي لكي لا يفلت الطلبة من رقابتي!

هذه المرة كان علي أن أنتزعها، وأن أخرج منديلي من جيب سروالي لكي أمسحها جيدا..

يبدو أن المهمة أخذت مني أكثر مما يجب، ولعل الإحساس اللذيذ بالدفع جعلني أسترخي قليلا، بحيث أنني عندما أعدتها إلى مكانها ثانية رأيت ما لم أراه من قبل!

يبدو أن أحد الطلبة صب قليلا من الماء على خزان المدفأة حيث يشتعل الخشب بهدوء، ثم جاء آخر فوضع قطعة من قماش مبلل فازدادت المدفأة اختناقا.. وراحت موجات الدخان تكافح بشراسة لكي تجد لها منفذا لمغادرة المخزن المختنق.. وفي دقائق أصبح جو الغرفة مشبعا بالرائحة الحادة والدخان..

حاولت أن أكتم رغبة جارفة بالسعال، ولكن عبثا.. لقد تسال السم إلى رئتي وخيشومي فكاد يمنع عني التنفس ويضعني أنا الآخر في دائرة الاختناق..



مرة أخرى تساءلت وأنا أغوص في بئر عميق:

- أية مسرحية؟

أجاب، وهو يجفف بمنديله المزركش الدموع التي أثارها ضحكته:

- مسرحية الدخان يا أستاذ.. لقد أحسنت إخراجها على أية حال رغم أنك تركت خشبة المسرح في لحظة تأزم الموقف!

تنحى المدير قليلا وهو يلتفت إلى معاونه متسائلا:

- ما الذي حدث؟

قال معاون وهو يحاول أن يكون أكثر تأدبا مع مديره:

- أسأله أيها السيد المدير، فأنا أفضل أن يجيبك بنفسه!

- الأربعاء ١٤/١٢/١٩٥٣م:

ألقيت نظرة عابرة من النافذة المطلة على فناء المدرسة فدق قلبي بعنف.. ها هو ذا المفتش القادم من بغداد في إحدى جولاته الموسمية.. وبين يديه يتقافز معاون بجسده النحيل، وقدرته المذهلة على الحركة السريعة.. وبين لحظة وأخرى يقترب منه ويهمس في أذنه شيئا.. لا بد أنه يحدثه عني.. قلت في نفسي.. إنه قادم إلى الصف لا محالة.. والمسألة مسألة وقت.. ودق قلبي بعنف أشد هذه المرة حتى كدت أسمع وجيبه.

التفت إلى طلبتي ريثما أوصل الدرس فوجدت عقدهم قد انفرط كرة أخرى.. بذلت جهدا استثنائيا لإعادة السيطرة فلم أنجح.. توسلت إليهم أن يرجع كل إلى مقعده وأن يلتزموا الصمت لكي أتمكن من إتمام محاضرتي، فلم يأبهوا لي.. لم أقل لهم: إن المفتش قادم بعد لحظات، وإن معاون سيحظى بالثمرة المرة التي انتظرها طويلا فتسقط بين يديه..

وأنا ألقى الرشفة الأولى من الهواء النقي الممتاز بالبرد والمطر، خيل إلي أن معاون ينطلق كالسهم فيتجاوز الفناء الواسع ويمرق إلى الصف. ها قد وقعت الواقعة.. قلت في نفسي.. فما العمل؟

كان علي أن أرجع سريعا إلى دائرة الدخان والاختناق وهدير الأصوات لكي أجابه الموقف.. وجدت معاون ينتصب قريبا من الباب.. نظر إلي بازدراء يصعب وصفه، ولم يكلف نفسه حتى عناء كلمة يقولها لي: اتبعني مثلاً.. واكتفى بإشارة من إصبعه كأنه يصدر أمره إلى تلميذ أو فراش، ثم ما لبث أن غادر الصف.

للحظات حدثتني نفسي بعصيان أمره.. وقلت في نوبة حماسة مفاجئة: ليكن ما يكون! ولكنني ما لبثت أن تذكرت النقل، وربما الفصل والجوع والتشرد، فانكمشت قليلا، ورحت أقتنع نفسي بأن التعليمات لها حرمتها هي الأخرى.. وخلال أقل من دقيقة وجدتني في غرفة المدير.

كان جالسا كمعدته على الكرسي الدوار بكرشه المنتفخ، وعينيه اللتين أسرهما إغراء النوم.. وإلى جواره كان يقف معاون كئذير السوء.. ببنيته الضعيفة، ولكن بعصبية وقدرته الجارفة على اكتساح الخصوم..

قال بنبرة ساخرة ودون أن يأخذ إذنا من المدير: - هيا يا أستاذ احك للسيد المدير عن تفاصيل المسرحية الكوميديّة التي شهدتها حصتك!

قلت وكأنني أدفع قدرا واقعا لا طاقة لي به:

- أية مسرحية؟

فجأة انفجر بضحك متواصل راح يهتز معه جسده النحيل واضطر أكثر من مرة لإعادة تثبيت (سدارته) السوداء على رأسه قبل أن تسقط على الأرض!!

حياني المفتش ببرود، ثم ألقى نظرة مترعة بعدم
الارتياح إلى الطلبة المبعثرين على غير انتظام.. وقال
بهدوء مشيراً إليهم:

- ما هذا؟

تراكض الطلاب هنا وهناك، وفي لحظات كان
كل منهم قد استقر في مكانه والتزموا صمتاً موجعاً
كأن على رؤوسهم الطير.. وشعرت كما لو أنني أزداد
انكشافاً قبالة المفتش والمعاون.. وأن ثمة فضاء
خاوياً.. فضاء مخيفاً مترعاً بالوحشة والكآبة يحيط
بي من كل مكان، وأنني تركت فيه وحدي لمجابهة
الخوف والمجهول.

ومن مكان بعيد لم أقدر على تبين
مصدره سمعت حواراً مفككاً وأصواتاً
متداخلة، وخيل إلي اللحظات أن المفتش
يسأل الطلبة عن بعض المفردات، وأنهم لم
يعطوه ما يريد.. وخيل إلي أيضاً أن معاون
عاد لكي يهمس في أذنه أكثر من مرة! ألم
أقل لك؟!

وبدون ما كلمة وداع واحدة غادر
الرجلان الصف، وتركاني وحدي.. قبالة
الوحشة والخوف والفراغ.. إزاء طلبتي
الذين أحببتهم كثيراً فخذلوني في ساعة

الامتحان!

وقلت في نفسي مرة أخرى وأنا أتهالك على
الكرسي، وأمسح بظاهر كفي قطرات العرق المتصبب
على جبھتي بغير حساب: لم أحاول يوماً أن أؤذي
فلم تلاحقني؟!

- الجمعة ٢٣/١٢/١٩٥٣م:

أخذت أميل إلى البقاء في الدار.. إنه ملاذي
الأخير.. ثم إنني لا أريد أن أخدع نفسي، فإن قدرتي
على التواصل مع الآخرين راحت تتضاءل يوماً بعد

لم أشأ أن أبين لهم أن نصله الحاد قد يحز رقبتني
بمجرد أن يرى المفتش رأي العين عجزني عن ضبط
طلبتي والإمساك بزمام الدرس.

هرعت إليهم وأنا أدخل مع الزمن بسباق محموم
لعلي أعيدهم إلى الطريق.. التحمت بهم، وتوسلت
إليهم دون جدوى.. أخذت قطرات العرق تنبجس على
جبھتي، رغم برودة الجو، وأنفاسي تزداد تسارعاً..
وعلى حين غفلة تلقى سمعي نقراً خفيفاً على
الباب...

أجبت كمن يعاني من كابوس ثقيل، فيصرخ فلا



يسمع صراخه:

- تفضل!

انفتح الباب بهدوء وهو يئز، وأطل المفتش ومن
ورائه معاون.. عرضا التقت نظراته بنظراتي
الزائغة فأحسست كما لو أنه يبتسم ويقول بتشف: ها
قد جاء يومك يا نجيب، فلكل شيء نهاية..

وقلت في نفسي وأنا أكافح الدوار والغثيان وأتحرك
بيبطة صوب الباب لاستقبال المفتش: لم أحاول يوماً
أن أؤذيكم فلم تلاحقني؟!



لحققتني اللعنة إلى الدار والأهل، فلم أعد أقدر على التواصل معهم.. على نقل أفكاري إليهم أو التعبير عنها بشكل واضح محدد.. لقد خذلتني الكلمات.. كما خذلتني طلبتي.. فلا حول ولا قوة إلا بالله.. كنت أتوقع أن تجابه أحاديثي المتقطعة مع الأهل بالضحكات المكتومة كما كان يحدث مع الزملاء في مقهى الحمراء، ولكنني فوجئت بالحزن العميق يكسو وجوههم، وبالدموع وهي تكاد تطفز من عيونهم كلما قلت شيئاً أو هممت بحديث..

- الاثنين ٢٦/١٢/١٩٥٣م -

صدر الأمر بنقلي إلى مدينة زاخو في أقصى شمال العراق.. تلقيت النبأ باستسلام كامل.. لم أكن أتوقعه على الإطلاق.. وقد أعانني ذلك على امتصاص الصدمة إلى حد كبير، رغم ما كان يخترقني بين الحين والآخر من إحساس ممض بالفيظ تجاه المعاون، وكنت أقول في نفسي: لقد انتصر علي أخيراً..

لشد ما كنت أتمنى أن أتححر من هذه الوخزة القاسية.. عندها - كما يخيّل لي - لن يكون ثمة ما يقلقني أو يؤلّني.. ولكن ليس في اليد حيلة.. ويبدو أن الإنسان مكتوب عليه أن يحمل عذابه على ظهره، حتى وهو يعلن موافقته المطلقة على الاستسلام..

برد زاخو يخترق العظام، ومطرها المتواصل ليل نهار، وفضاؤها الرمادي الكثيب، ما كانت لتزيدني إلا إحساساً بالأمن والاطمئنان.. ها هو ذا المنفى الذي كنت أحلم به، وسأجدي قبالة صنف آخر من الطلبة قد يكون أرحم بكثير، وسأعرف كيف أبدأ معهم بداية جديدة في ضوء خبراتي السابقة.. سأعرف كيف أستعيد قدرتي على إدارة الصف كـ (مايسترو) ماهر يحرك بعضاه السحرية جوقته صوب ما يريده هو، لا ما يريدونه هم!.

يوم، وأصبح وجودي مع زملائي المدرسين في (مقهى الحمراء) القريب من المتوسطة التي أعمل فيها غير مرغوب فيه..

وتساءلت بمرارة: ما الذي حدث؟ لقد كانوا إلى عهد قريب يبحثون عني ويلحون علي بالحضور.. وطالما قالوا: إن جلسات الحمراء لا تحلو بدون نجيب.. فما الذي حدث؟ كنت ألاحظهم بين الحين والحين يتبادلون



الضحكات المكبوتة كلما تحدثت أو هممت بالكلام.. ما الذي يدعوهم إلى الضحك؟ ما الذي يجعلهم لا يكثرثون لكلامي وكأنني صبي لا يدري كيف يصوغ المعاني والعبارات؟

على حين غفلة ناداني هاجس ملح.. أن أعتزلهم حفاظاً على كرامتي، فاستجبت للنداء، وأصبحت الدار والأهل هي المأوى والملاذ، ولكن، بمرور الوقت،

ويفرق في عالمه الخاص.. ولك أن تتصور ما الذي يشهده مسرح العمليات! طلبة البكلوريا رفعوا شكواهم للمدير في أن الموسم الدراسي يمضي إلى نهايته دون أن يكون مدرس الرياضيات قد اجتاز بهم نصف المفردات المنهجية..

أحد الطلبة الأذكياء نقل هذه المعلومة إلى المدير: إن المدرس المنقول عندما يكون في كامل انتباهه يقدم لهم في لحظات ما لا يستطيع غيره أن يقدمه في ساعات.. ولكن...

ويوما استدعاني المدير، وبطريقة مهذبة أعلمني أنني ربما أعاني من مشكلة ما، وأن حالتي النفسية تقتضي بعض التخفيف عني، وأن محاضرات الخامس الإعدادي ستعطى لمدرس آخر..

تقبلت الأمر برضى.. ووجدتني أقول للمدير، وأنا أكرر شكري وامتناني، إنه إذا شاء سحب يدي من بقية المراحل فلن يفضبني ذلك!

نظر إلي بدهشة وأراد أن يقول شيئاً ما، لكنه آثر الصمت في اللحظة الأخيرة..

بعدها بيومين تسلمت أمر فصلي من الوظيفة، وخرج المدير بنفسه وعدد من الزملاء لإيصالي إلى الكراج وتوديعي بحرارة.

- الأربعاء ٤/٤/١٩٥٤م -

نظرت أُمي إلي بدهشة وقالت وهي تشير إلى ذقني:

- ما هذا يا نجيب؟

جرفتنني موجة من الذهول فلم أرد عليها...

بعد ساعة أو ساعتين سمعتها تقول لأبي وهما يجلسان في الفناء الذي تطل عليه غرفة نومي:

- ابنك انتهى يا رجل!

أجابها، كمن يحاول أن يدفع شيئاً فوق طاقته:

- لا تكوني متشائمة بأكثر مما يجب يا امرأة.

كان كل شيء يضعني في دائرة الائتمان الذاتي، لولا شيخ المعاون الذي ظل يخترقني بين لحظة وأخرى كنصل حاد، وكنت ألتقي في كل مرة يقتحمني فيها رشقات من القهر والمرارة والرغبة المكبوتة بالرد..

ما أحال وجودي في زاخو إلى جحيم مشبوب.. مرارا هممت بركوب إحدى سيارات الأجرة العائدة إلى الموصل، فقط لكي أجابه المعاون وأرد عليه، ولكنني كنت دائماً أترجع في اللحظة الأخيرة.. كان الخوف من الفشل يشلني، وكنت أقول: من يدري فلعله يهزمي مرة أخرى، فكيف سيكون الحال؟

وبمرور الوقت صرت أهرب من حصار القهر وسكينه الحادة التي تغوص في لحمي لحظة وأخرى.. إلى الشرود.. محاولة لتغيب العقل والذاكرة، وفك الارتباط بيني وبين العالم.. قطع الجسور مع المدركات والحسيات والاعتصام بالجزيرة المنعزلة التي تتأبى على السموم.. وحينذاك - فقط - سأرتاح..

يوماً بعد يوم كنت أجدني مرغماً على إعطاء مساحة زمنية أكبر لحالة الشرود والانفصال هذه. وقلت في نفسي: لقد أصبحت يا نجيب مدمناً من نوع خاص.. لكن لا بأس...

جلساتي مع الزملاء في نادي المعلمين في زاخو أصبحت تثير الدهشة والتساؤل، ولكنهم ما لبثوا أن اقتنعوا، بمبررات انفصالي عنهم وإغراقي في الشرود.

وكنت أنصت إليهم أحياناً وهم يشيرون إلي من طرف خفي ويقول أحدهم:

- لا داعي لإزعاجه.. دعوه في شروده.. فإن نقله من الموصل إلى هنا لم يكن دوناً سبباً!

وشيثاً فشيئاً كانت تصل المدير حكايات عما يجري داخل الصف.. قالوا له: إن شرحه للمادة لا يتجاوز الدقائق العشر، وبعدها يذهل عن طلبته



اقتربت منه أكثر وهي تقول:

- يكفي أن تنظر إلى ذقنه.

وللحظات تذكرت وأنا أفرك عيني من آثار إغفاء عميقة، كيف أنني جعلت من ذقتي فرصة طيبة لتأكيد علاقتي بتخصصي.. فجعلت موسى الحلاقة ترسمه على كل جانب في صيغة مثلثين متعاكسين.. وكيف أن هذا طالما أضحك زملائي في زاخو، ولكنهم ما لبثوا أن اعتادوه.. والمهم أنني أنا شخصيا كنت مقتنعا به حتى النخاع!

منهم فلم ترد علي.. انتحت جانبا من الفناء وراحت تبكي بصمت..

استجمعت قوتي المتلاشية كلها وصرخت:

- ما الذي جرى؟ وهل ارتكبت جرما يستحق هذا كله؟

فلم يرد علي أحد.. كانوا منهمكين بإحكام وثاقي.. ثم دفعوني نحو الباب.. ولمحت المعاون يقترب أكثر من المفتش ويهمس في أذنه فصرخت مغتاظا:

- ألم يكفك ما حل بي؟

لكنه فجأة ما لبث أن اختفى والمفتش دون أن يكلف نفسه عناء الرد علي.. ووجدتني أرتفع قليلا قليلا كما لو أنني أسبح في الفضاء، لكنني ما لبث أن أستلقي متهاككا على مقعد طويل في باص مقفل انطلق بي بسرعة أسطورية لا أدري إلى أين...

■ السبت....

إذا استطعت أن أفكك منظومة الحياة وأحيلها إلى أصولها الرقمية.. إذا استطعت أن أفسر لغز الكون بالإحالة على أضلاع المثلث الثلاثة.. إذا استطعت أن أجعل المعادلات حكما بين الإنسان والإنسان.. أطلقوا سراحي وأعادوني إلى بيتي وأهلي ومدرستي، وردوا إلي تلاميذي الذين أحببتهم..

هكذا وعدني المدير الذي اعتقلوني في سجنه الكئيب منذ زمن لا أعلم بدايته.. ترى هل سيقدر لي الخلاص؟

■ الاثنين....

لقد أجهزت علي دون سبب معقول.. فهل ستكف عن ملاحقتي؟

■ الخميس....



■ الثلاثاء ٦/٦/١٩٥٤م:

قرع الباب بعنف فهرعت زوجتي لكي تفتحه.. تدفق حشد من ذوي الملاءات البيضاء والقبعات الخضراء، وقبل أن يتساءلوا، أشارت زوجتي إلي! فقلت لها وأنا أغوص في بئر عميق:

- حتى أنت يا بروتس؟

خيل إلي أن المفتش والمعاون يندفعان مع المندفعين لكي يوثقوني رباطا، وناديت على زوجتي أن تحميني